الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الترقية إلى المدارس الثانوية — إلى وزير المعارف — ردوا هؤلاء المدرسين إلى المدارس الأولية ! — أربعة قرون من تاريخ العراق — افتحوا الشبابيك وانظروا الليل ، لتشغلوا عما في قلوبكم من أسباب المآطب والحتوف

الترقية إلى المدارس الثانوية

كانت وزارة المعارف تراعي « الأقدمية » في ترقية المدرسين من الابتدائي إلى الثانوي ، مع ملاحظة تقارير المفتشين ومع النظر في درجات « الدبلوم » وذلك نظام غير مقبول ، وإن كان يعتمد على قواعد لها صلات « ظاهرة » بفكرة العدل

والحق أن نظرية « الأقدمية » لها دخل في تعويق المواهب ، لأنها تصل بأهل البلادة والخمود إلى ما يريدون على مر الزمان ، وتصد الموهوبين عن الوصول إلى مطامحهم المالية فتردهم أشباحاً تنتظر مرور الأيام لتصل إلى الهدف المنشود بلا تعب ولا عناء .

والحق أيضاً أن درجات الدبلوم ليست وثيقة أبدية لكفاية المدرس ، فقد يخمد نشاطه بعد ذلك ، وقد يبذه من سبقهم في الترتيب

وإذن فلا بد من مقياس جديد ، وهو مقياس « المسابقة » لاختيار المدرسين للمدارس الثانوية ، وذلك نظام لا يثور عليه غير الزاهدين في الدرس والتحصيل ، أو الخائفين من الخيبة والإخفاق

وقد أجريت المسابقة بين المدرسين في الأعوام الأخيرة فكانت فرصة لمراجعات نحوية وصرفية وبلاغية وأدبية غفل عنها أكثر مدرسي اللغة العربية ، وكذلك يقال في سائر المواد ، فتلك المسابقة هي في الواقع فتح جديد ، وإن قيل فيها ما قيل .

فإن لم يكن بد من النص على بعض المؤخذات فأنا أقول إن الترفق بالمتسابقين ظاهر ظهوراً جلياً ، وكنت أحب أن يكون ذلك الاختبار أقوى مما رأيناه ، ليكون شهادة بالقدرة على التعمق والاستقصاء ، ولتكون له جميع خصائص الـ Concours بحيث يمكن للسابقين أن يصبحوا ولهم منازل أدبية وعلمية تستوجب الالتفات

والخطأ يرجع إلى الأساس الذي يبنى عليه تكوين اللجان ، فتلك اللجان تختار في الأغلب من رجال مشغولين ، وهم الرجال الذين تختارهم وزارة المعارف لجميع اللجان ، كأنهم من « أهل الخطوة » وكأنهم يقدرون على كل شيء ، فهم أعضاء في كل لجنة ، وهم شهود في كل اجتماع ، وهم زينة جميع الحفلات !!!

واختيار اللجان على هذا الأساس يضيع المقصود من المسابقة بعض التضييع ، فالأصل أن يكون عند المتحن من الوقت ما يسمح بأن يراجع مواد الامتحان بعناية وتدقيق ، ليدرك الفروق الخفية بين مواهب المتحَنين ، وليُشعِر المتسابقين بقيمة التعمق والاستقصاء ، وذلك لا يتيسر لرجل مشغول ، وأعضاء اللجان عندنا رجال مشاغيل بحرفة الاشتراك في اللجان ، وهي حرفة لم نجد لها أثراً فيما قرأنا من كتب التاريخ ! جعل الله كلاي خفيفاً على جميع أعضاء اللجان !

أما بعد ، فقد ثار على هذا النظام « ستة نَفَر » من المدرسين بالمدارس الابتدائية ؛ وهم الأساتذة : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد السلام محمد هارون ، وعلي محمد البجاوي ، وإبراهيم الإبياري ، ومحمد سعيد العريان ، وعبد الحفيظ شلبي .

وهم يرجون أن يُرَقّوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان

ولكن كيف وهو نظام لا يثور عليه رجل حصيف ؟ ؟

هم يجيبون بأن لهم جهوداً في « التأليف والتحقيق الأدبي » وتلك الجهود لا تقل قيمة عن الجهود التي تُبذَل في الاستعداد لذلك الامتحان !

وأقول إن هذا حق ، فلهؤلاء المدرسين جهود محمودة في التأليف والتحقيق ، وفيهم من وصل إلى الابتكار في بعض الفنون

ولكن وزارة المعارف لا يعجزها أن تجيب ، فهي تقول إن هذا الباب إن فُتِح فسيفيح فرصاً كثيرة لأدعياء التأليف والتحقيق . وهي تقول أيضاً إن المؤلف أو المحقق لا يجوز له النكول عن مثل ذلك الامتحان

وأنا أرى ما ترى وزارة المعارف في هذا الموضوع ؛ ولكن الحجة التي ساقها هؤلاء « النَّفَر » — وهو التعبير الذي اختاروه في المذكرة التي قدموها إلى وزير المعارف — الحجة

التي ساقوها تبعث على التفكير في حظهم من الإنصاف

يقول هؤلاء : « إن مدرسي اللغة العربية الذين يبلغون ١٢٠٠ ليس فيهم إلا ستة نفر استطاعوا بجهادهم بين هذا الجمع الجامع » إلى آخر الاحتجاج[1]

في مصر ١٢٠٠ مدرس لم يلتفت منهم إلى التأليف والتحقيق غير هؤلاء ؟ !

أهذا حق ؟ أم هو وهم اعتصم به أولئك المدرسون ؟

إن كان حقاً فيجب أن يُرَقَّوا في الحال ، وإن كان باطلاً فيجب أن يحالوا إلى « مجلس التأديب » ، لأنهم أهانوا طائفة المدرسين !

وعلى فرض أنهم لم يقولوا غير الحق فلن تعجز وزارة المعارف عن الجواب ؛ فستقول — وقد قالت — إن المسابقة يراد بها اختيار المدرسين الأكفاء ، لا المؤلفين الأكفاء ، وهنالك فروق بين التدريس والتأليف

وهذا أيضاً حق ، ولكن هؤلاء مدرسون رضيَ عنهم المفتشون في أمد يزيد على عشر سنين ؛ فماذا تريد الوزارة أكثر من ذلك لتطمئن إلى صلاحيتهم للتدريس ؟

الى وزير المعارف

وزيرنا اليوم هو معالي الدكتور محمد حسين باشا ، وهو رجلٌ متنوع المواهب ، ولكن التاريخ لن يحفظ له غير موهبة واحدة هي موهبة التأليف والتحقيق ، لأنها أظهر مواهبه العقلية ، فما الذي يمنع من أن يتلطف فينظر إلى هؤلاء المدرسين بعين العطف وقد شاطروه إقذاء العيون تحت أضواء المصابيح ؟

إن لم يتصفهم الوزير المؤلف فمن ينصفهم ؟

وإن كان في ريب من قدرتهم على إجادة التأليف فليراجع مؤلفاتهم « في أوقات الفراغ » ليحكم لهم أو عليهم بما يشاء !

ردوا هؤلاء الى المدارس الأولية

ومَن هؤلاء ؟ هم جماعة من المدرسين في المدارس الابتدائية لا يحسنون كتابة مذكرة إلى وزير المعارف ، وإن كان فيهم أفراد من أهل التأليف والتحقيق

وأعيذ القارئ أن يفهم أني أغض من أقدار معلمي المدارس الأولية ؛ فأنا أشير داعماً بأن يكون « كبار الأساتذة أوصياء على صغار التلاميذ » فالطفل يحتاج إلى مدرس عليم ، أما التلميذ أو الطالب فحاجته قليلة إلى المدرس الممتاز ، لأنه يطلع بنفسه على دقائق العلوم والفنون

فمن هؤلاء الذين أشير برجعهم إلى المدارس الأولية عقاباً لهم على التقصير في الإنشاء ؟

هم « النَّفَر » الذين يرجون أن يُرقوا إلى المدارس الثانوية بدون امتحان ، بفضل ما قدموا في خدمة التأليف والتحقيق !

وسأجيب على هؤلاء النفر ، مع الرجاء بأن يراعي وزير المعارف أن هذا الهجوم لا يراد به الغض من منازلهم الأدبية ، فهم حقاً وصدقاً من أفاضل المدرسين ، وإنما جاءت العلة من اشتراك جماعة في كتابة مذكرة ممدودة السطور والكلمات ولو أنشأها كاتبٌ واحد لجاءت غاية في الوضوح والجلاء

وإليهم أسوق المؤاخذات الآتية :

أولاً — قالوا إن ماضيهم في التدريس والتأليف قضى بأنْ « لا تتهيأ لهم العوامل النفسية التي تسمح بأن يُقبلوا على امتحان الترقية »

ومعنى ذلك أنهم صاروا في أنفسهم أعظم من لجان الامتحان مع أن الأخبار تَرِد من وقت إلى وقت بأن في أوربا وأمريكا من يتقدمون إلى المسابقات بعد الخمسين ، ولهم في ميدان المجد الأدبي والعلمي مكان

ثانياً — قالوا « إن المعلم بعد أن ينضج وتكتمل شخصيته العلمية لا يتأتى له أن يعود تلميذاً يستوعب ويفرغ ما يستوعب »

وأقول إن التلميذ الحق هو المدرس الحق ، والاستكبار على التلمذة ضربٌ من الجهل

ثالثاً — قالوا « إن الذي يحسن أن يقول لا يستحسن كل ما يقال »

وأجيب بأن امتحان الترقية يطالبهم بالنقد لا بالاستحسان

رابعاً — قالوا « إن الذي له عقل الناقد غير الذي له عقل السامع »

وأقول إن السمع نوع من النقد ، لو كانوا يعقلون !

خامساً — قالوا : « كلما ارتفع الإنسان منزلة في الرأي نزل

(١) الاحتجاج : إقامة الحجة ، وهو يستعمل اليوم بمعنى الاعتراض ، والمراد هو المعنى الأول

مرتبة فى الاستعداد للتعلم من غيره »

وأجيب بأن هذا زهو بغيض ، ولو أنصفوا لحكموا بأن الارتفاع فى الرأى يزيد فى الاستعداد للفهم والاستيعاب

أما بعد فتذكرة هؤلاء النفر لن تنفعهم بشىء لأنها أقيمت على حجج ظاهرة البطلان

ولكن هذه المذكرة لا تصور أقدار هؤلاء المدرسين ، وأنا أنتظر أن يتطلع وزير المعارف فينظر إليهم بعين العدل والإنصاف وهو أقدر الرجال على وزن أهل التأليف والتحقيق

إن غلطة واحدة يكشفها باحث فى كتاب قديم أو حديث تستوجب الالتفات ، فما سكوتنا عن جماعة كشفوا العشرات أو المئات من الغلطات ؟

يضاف إلى ذلك أن الاهتمام بالتأليف والتحقيق يشهد لأصحابه بالقيمة الأخلاقية ، فأولئك المؤلفون والمحققون أنفقوا أوقات فراغهم فيما ينفع ويفيد ، ولم ينفقوها فى (لعب الأوراق) كما يصنع الفارغون من أكثر الموظفين !

أنصف هؤلاء ، يا معالى الوزير ، ليعرف جمهور المدرسين أن الدرس والبحث والتنقيب من الأعمال التى لا تضيع

هؤلاء جنود العلم والأدب ، يا معالى الوزير ، وهم صوت مصر الصداح ، وإليهم وإلى أمثالهم يرجع الفضل فى رفع صوت مصر بأقطار الشرق

وما عسى أن تكون مصر فى العهد الحديث لو حُرِمتْ أصوات الشعراء والكتاب والمؤلفين ؟

أولئك هم المضحّون بأنفسهم فى سبيل المجد المصري ، فمن الواجب أن نعفيهم من حضور الامتحان ، أمام فلان وفلان ، وأنت تعرف ما أريد ! ؟

أربعة قرون من تاريخ العراق

كتاب ظهر بالإنجليزية سنة ١٩٢٥ وهو من تأليف المستر لونكريك المفتش الإدارى بالحكومة العراقية سابقاً ، ونقله إلى العربية الأستاذ جعفر خياط مدير التعليم الثانوى بوزارة المعارف العراقية

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه تحدث عن عصور لم يتحدث عنها أحد بالتفصيل ، فقد بحث عن تاريخ العراق فى العصور المظلمة من بداية القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر

وكانت النية أن أنظر فيه نظرة عابرة لأكتب عنه كلمة تقوم مقام التحية لصديق كريم من أعز أصدقائى فى العراق ، وهو الأستاذ جعفر خياط وليس من الإسراف أن نذكر صديقاً بالخير لأنه ترجم كتاباً بلغ أربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وإن لم نطل النظر فى ذلك الكتاب

وبدأت بقراءة الفصل الأخير لأهميته عندى ، وهو الفصل الذى يسجل أعمال مدحت باشا فى العراق ، فقد كنت سمعت أنه أعظم حاكم عرفته تلك البلاد بعد الحجاج ، ثم استهوانى أسلوب المؤلف فى التأريخ فمضيتُ أُصعِّداً إلى أن وصلت إلى المقدمة ، وكان آخر ما قرأت كلمة المترجم ، وتم ذلك كله فى يومين اثنين ، بفضل مهارة المؤلف فى إحياء معالم التاريخ

ولى هذا الكتاب على كثير من الحقائق ، ومنه عرفت كيف كانت دول أوربا تغازل العراق فى القرن التاسع عشر ، وكيف كانت التجارة وسيلة لإيقاع بلاد الرافدين فى الأشراك

والمؤلف لم يُرد بكتابه غير هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية ، وهو قد صرح بأنه يتحدث « عن تاريخ بلاد يتعلق ماضيها الأخير بحياة الألوف من أبناء بلاده ومصايرهم » ولم يفته أن ينص على أن تلك المصاير تثير الجدل بين مواطنيه وهم ينظرون إلى المستقبل بعناية والتفات

وكذلك يرى علماء الإنجليز أن التاريخ أداة من أدوات النفع ، وهل يُدرَّس التاريخ لغرض أنفع من هذا الغرض ؟

إن الهدف الأول لهذا المؤلف هو إرشاد قومه إلى خفايا العصور التى كوّنت العراق الحديث ، وقد وصل إلى ما أراد وإن كان اهتمامه بتسجيل ما صنع أسلافه لم يخل من تحيّز مستور أو مكشوف ، والنزاهة المثالية لا تتاح لجميع الناس

ولا بدّ من النص على أن هذا الكتاب من نماذج البراعة فى سرد حوادث التاريخ ، وهو يربط العراق بالأمم التى تأثر بها من قُرب أو من بُعد فى مدى أربعة قرون ، حتى لتكاد تشهد سيال النافع بين تركيا وإيران ، ولو شئت لقلت إنه يشير من طرف خفىّ إلى تأثير مصر فى بعض وقائع ذلك التاريخ ، وتلك

نقطة لم يلتفت إليها مؤرخو مصر فى العصر الحديث

وإذا كان المؤلف قد أراد هداية قومه إلى خصائص الحياة العراقية ، فقد أراد المترجم أن يدل قومه على تلك الخصائص بنقل هذا الكتاب إلى العربية ، وهم قومٌ شغلتهم متاعب الكفاح عن تأريخ العراق فى عصور الظلمات

وفى مقدمة المترجم إشارة إلى جهود الدكتور مصطفى جواد فى المراجعة وبعض التعليقات ، وهى إشارة ذكّرتنا بأديب فاضل قضى وقتاً فى طلب العلم بالجامعة المصرية ، وترك فى أنفس عارفيه صورة محفوفة بالود والإعجاب .

افتحوا الشبابيك وانظروا الليل

الشبابيك جمع شِبّاك ، وهى كلمة فصيحة تؤدى معنًى لا تؤديه كلمة النوافذ ؛ كما تؤدى كلمة الدكاكين معنًى لا تؤديه كلمة الحوانيت

والليل صديق فى هذا العهد ، ولا أقضيه فى غير دارى ، لأن صدرى ينقبض من السهر فى القاهرة منذ عرفت المصابيح الزرق ؛ وكانت لياليها أشد إشراقاً من الصباح

وفى هذه الليالى البيض أو السود ، عرفت قيمة الخلوة إلى قلبى ؛ كما عرفت قيمة الليل ، وكما عرفت أن القلم هو الصديق الباقى على الزمان .

إذا عَوَتْ صفارة الإنذار كان من واجبك أن تطفئ النور وتفتح الشبابيك ؛ كما توصى « وزارة الوقاية المدنية » ، وقد اكتفت بذلك فلم تأمرك بالنظر إلى الليل ، ولعلها تخاف عليك فى صدورنا بقية من الخوف الموروث عن أسلافنا القدماء ، يوم كانوا يعيشون فى الغابات والأدغال ، وحين كان الليل مسرح المهالك والحتوف

ولكن ، هل تعرف لِمَ أوصيك بنظر الليل حين تطفئ المصباح ؟

أوصيك بنظر الليل لتشغل به عن النظر فى قلبك ، إن كان لك قلب !

وهل فى الوجود مصاطب أخطر وأعنف من المصاطب المبثوثة فى ثنيات القلوب ؟

الوقوع فى مهاوى سقر أهونُ عليّ من الوقوع فى مهاوى قلبى ، ففيه مخاوف ومهالك لا أستطيع اجتيازها بأمان ، ولو زوّدتنى المقادير بما زوّدت به أهل الغفلة والجمود ، وما أسعدَ الغافلين والجامدين من أبناء هذا الزمان !

إحترس من قلبك كل الاحتراس ، وتغافل فى كل وقت عن مطامحه الغاشية ، فهو لا يقنع بالقليل ، ولا يرضيه إلا أن تسيطر على جميع من فى الوجود ، وأين أنت مما يريد ؟

إحترس من قلبك ، إلا أن تعرف كيف تسايره فى أودية الأمانى والآمال ، وشِعاب الشعر والخيال

إحترس من قلبك ، كما أحترس من قلبى ، فما سايرته إلا فى ميدانين اثنين : ميدان الحب وميدان المجد ، ثم كان نصيبى أن أقضى حياتى فى عناء وشقاء

القلب ، وما أدراك ما القلب ! هو جارحة روحانية تدرك بها ما لا تدرك بالجوارح الطبيعية ، وهو سبب ضلالك وسرُّ هداك ، فنزّهه عن النظر إليه فى كل وقت ، لينتفع بغفلتك عنه فينبئ ويستطيل ، كما يصنع السفهاء عند غفلة الرقيب !

لا بدّ لك من قلب فتّاك سوّال ، ليكون من حظك أن تشهد قيام الموازين ، فقد سمعتُ أن الخلائق لن تُبعث جميعاً ، وإنما يُبعث من لهم تاريخ فى إزاغة البصائر أو هداية القلوب ...

زكى مبارك

لا تنسوا الآن بعد الآن !

أحدث الاكتشافات العلمية فى صحة الفم !

اليود فى عجينة للأسنان :

يودكالكلور

أطلب النشرة العلمية الخاصة من :

جلاتهورمين صندوق بوستة ٢١٠٥ مصر

(س . ت ٥٢٢٧)